

أسباب وقوع الفتنة



قال تعالى: (وَإِنزَلْنَا قُرْآنًا فَتِنَةً لِّلَّذِينَ تَلَوْنَهَا لِيُتَلَّ بِحُجَّتِكُمْ بِيَدِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَكُونَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حِجَّةٌ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً) (الأنفال / 25).

إنَّ تعرُّضَ أيِّ مجتمعٍ سيِّمًا المجتمع الرسالي لفتنة تحاول حرقه عن مساره الإلهي، وبالتالي مصادرة الرسالة الإلهية بكافَّة إنجازاتها وانتصاراتها أمرٌ ينبغي توقُّعه دائمًا، ولعلَّ ذلك مردُّه إلى أنَّ الثبات على الرسالة في مراحل القوَّة والسلطة والنعمة أعظم وأشدَّ من الثبات عليها في مراحل الثورة والتغيير الذي يكون مطلب الجميع ورغبتهم، وإنَّ امتلاك الإنسان لمقدِّرات كبيرة وواسعة بدون الانغماس في لذائذ شهواتها أعظم بلاءً من ابتلائه بالمواجهة واستعداده للبدل في سبيل إقامة حكم الله في الأرض، ولذلك يسقط البعض من أهل الطمع والجشع وضعاف النفوس.

أسباب وقوع الفتنة:

يقول أمير المؤمنين (ع): "إنما بدءٌ وُقع الفتن أهواءٌ تُتَّبَعُ وأحكامٌ تُبَدَّعُ يُخَالَفُ فيها كتابُ الله ويتولَّى عليها رجالٌ رجالاً على غير دينٍ الله فلا والله أن الباطل خلد من مزاج الحقِّ لم يخف على المرتادين (الطالبين) ولو أن الحقَّ خلد من لبس (مخالطة) الباطل انقطعت عنه ألسنُ المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث (القبضة من الحشيش أو أي شيء آخر) ومن هذا ضغثٌ فيمزجان فهناك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو الذين سبقوا لهم من الله الحسنى".

ويظهر من هذا النص مجموعة أسباب أساسية تُنشَب الفتنة بين المسلمين وهي:

1- اتباع الهوى: أي سيطرة الأهواء الشخصية والمصالح النفعية وانحسار المبادئ والقيم الإلهية، لتصبح المعادلة الجديدة مقدار انتفاع الأشخاص وحيازتهم على المناصب والأموال بدل انتفاع الرسالة،

فيعمل أرباب الفتنة سعيًا لمراكز دنيوية لا مقامات أخروية.

2- ابتداء أحكام في عرض الأحكام الإلهية: وهذه الأحكام المبتدعة ليست مجرد نظريات أو أفهام خاصة لنص النبي (ص) بل هي أحكام في عرض خط النبي ووصاياه وتعاليمه، وهي ليست في جانب دون آخر كما يظهر من إطلاق القول بل هي أحكام على امتداد الحاجة فتشمل السياسة والعلاقات العامة، بل قد تطل التحريم والعقيدة وكل ما من شأنه إذكاء أسباب الفتنة واستعارها.

3- اتباع الأحكام المبتدعة: أي تطبيقهم لهذه الأحكام واعتمادها بديلاً من سنة النبي (ص)، فهم لا يكتفون بالتنظير لها بل ينزلونها منزلة الفعل والعمل، ويدافعون عنها مخلصين إياها بدين الله، فهم بذلك أتباع دين جديد، وسنة جديدة ما ألجأهم إليها إلا ضعف إيمانهم عن اتباع سنة النبي (ص).

4- نصره البعض للأحكام الجديدة: وهو ما يظهر من قوله (ع): "ويتولّى عليها رجالٌ رجالاتٍ علي غير دين الله"، أي أنهم يفرضون أحكامهم بالقوة ويدافعون عنها بالسيف، ويواليهم على هذا الأمر أتباع كثيرون من الجهلة والسذج وأهل الدنيا.

5- التخاذل عن نصره الحق: عن علي (ع): "أيها الناس لا ولّوا من تتخاذلوا عن نصر الحق ولم تهينوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقو من قوي عليكم. لكنكم تهتم متاه بني إسرائيل، ولعمري ليضعفن لكم التّيه من بعدي أضعافاً، بما خلافتكم الحق وراء ظهوركم، وقطعتكم الأدنى ووصلتكم الأبعد...".

ويدلّ قوله (ع) على أن نصره الحق عمل دائم لأهل الإيمان وأن أرباب الفتنة يتربصون بالأمة لحظة التخاذل كي يسعروا نار الفتنة.

وصف بدايات الفتنة:

ويصف الإمام (ع) كيف تبدأ الفتنة، ويصور آليّة حركتها وانتشارها في المجتمع، بقوله:

"... ثم إنكم معشر العرب أغراضٌ بلايا قد اقتربت، فاتّقوا سكرات النعمة واحذروا بوائق النعمة (المصائب الكبرى)، وتنبّتوا في قدام العِشوة (غبار الظلمة) واعوجاج الفتنة عند طلوع جنينها، وطهور كمينها، وانتصاب قُطبها ومدار رحاها. تبدأ في مدارج خفيّة، وتؤول إلى فطاعة جليّة. شبابها كسباب الغلام (إشارة إلى قوتها وعنفوانها)، وآثارها كآثار السلام (أي الحجارة الصماء أي أنها تجرح وتكسر) يتوارثها الظلمة بالعهود، أولهم قائد لآخرهم، وآخرهم مقتد بأولهم. يتنافسون في دنيا دنيّة، ويتكالبون على جيفة مريجة (نتنة). وعن قليل يتبرأ التابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون (يتفارقون) بالبعضاء ويتلاعنون عند اللّقاء...".

وهذا النص يشير إلى عدّة ملامح يجب التنبيه لها وترصدها في المجتمع قبل استفحالها، وأهمّها:

1- إن الفتنة إنّما تلازم شيوع روح التّرف في المجتمع كما حدّر الإمام من هذا بقوله: "فاتقوا سكرات النعمة..."، والحرص على التمتع بملذّات الحياة وتوفير أسباب الراحة والحياة الناعمة ممّا يصيب المجتمع بالترهل والانكماش وعدم التأثر في الآخرين، ويفقده الروح الثورية وأهدافه الكبرى القائمة على تحرير الإنسان من براثن الجهل والضلالة.

2- ما عبّر عنه الإمام بقوله: "تبدأ في مدارج خفيّة، وتؤول إلى فطاعة جليّة"، فهي تتسلل إلى الأذهان بطرق خفيّة ولعل ذلك إشارة إلى إحياءات الشيطان، ويكون المرء في سكرة عنها، ثم ما تلبث أن تتعاطم شيئاً فشيئاً حتى تصبح كبيرة وفطية، ولا يلتفت لها الإنسان إلا بعد هدأتها وانجلاء غبارها كما عبّر (ع) في الخطبة 93 من نهج البلاغة، قال: "إنّ الفتن إذا أقبلت شديّهت وإذا أدبرت نبيّهت، يُنكرن مَقْبِلاتٍ ويُعرفن مُدْبِراتٍ، يحْمَن حَوْمَ الرّياح يُصِبَنَ بلدًا ويُخطِنَ بلدًا".

فالفتن إذا أقبلت تشابه الأمر على الناس وضاعوا في غياها، فإذا أدبرت أدركوا كنهها وحقيقتها وأهدافها وعظيم جريمتها، فمثلها مثل الإعصار يضرب مدينةً فلا تعرف حجم خسائره إلا بعد زواله ولا تعرف ما ينبغي لك فعله ما لم تلتزم بالإرشادات المطلوبة لهذه اللحظة.

3- ما عبّر عنه الإمام بقوله: "شبابها كسباب الغلام، وآثارها كآثار السّلام"، فهي في فوريتها كعنفوان الشباب فويةٌ طموحةٌ لا تهدأ عند هدف، بل تسعى للمزيد من التسلط والتملك، وأمّا آثارها فهي كآثار الحجارة الصلبة التي إذا أصابت تركت جراحاً وكدمات بل وكسوراً في جسم الإنسان، فهي كذلك لا تترك جسد الأُمَّة دون أن تصيبه بالجراح والكسور.

4- ما عبّر عنه الإمام بقوله: "توارثها الظلمة بالعهد، أوّلهم قائد لآخرهم، وآخرهم مقتد بأوّلهم..."، وهذه الفتنة ليست مرحلة عابرة وغيمّة صيف في تاريخ الأُمَّة، بل سيعمد أربابها إلى توارثها بالعهد والمواثيق بينهم، وعلى الأُمَّة أن تبقى على جهوزيّة لهذا الأمر.

5- ما عبّر عنه الإمام بقوله: "... وعن قليل يتبرأ التّابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيترايلون بالبغيضاء، ويتلاعنون عند اللّقاء". فالفتنة بعد انتشارها، واستحكامها في المجتمع سوف تبرز التناقضات بين القادة وتظهر الخلافات بينهم على اقتسام الغنائم ويحاول كلٌّ منهم أن يستأثر بأكثر من الآخر، وحينئذٍ تنقسم قيادة الفتنة إلى فئات متخاصمة متناحرة، وتجرّ المجتمع وراءها إلى التخاصم والتناحر والحروب فتحوّل من فتنة إلى فتن ومن جماعةٍ إلى جماعات يسبّح كلٌّ منها بحمد قائده، وهم في الحقيقة يأكلون منها وتأكّلهم ليخسر الجميع بعد ذلك دنياهم والآخرة.